

النحو والنحاة

د. عبد الكريم محمد الأسعد

ضوء على البحث:

هذا مقال أشبه ما يكون بتاريخ النحو والنحاة منه بالنحو نفسه، وقد تطرَّق بإيجاز إلى مجموعة من الأمور هي:



- ١ - إيراد الخلاف في وجود لهجة خاصة ممتازة ومتميزة لقريش.
- ٢ - ذكر أسباب وجوب الاهتمام بالللهجات الأخرى - ولاسيما لهجة تميم - إلى جانب لهجة قريش، في الدرس النحوي.
- ٣ - القول في الشواهد التي سمعت بلغات أخرى تتناقض مع القواعد النحوية الموضوعية وفاقاً للغة معينة معتمدة ومفضلة هي لغة الحجاز، اتعد شاذة تحفظ

ولا يقاس عليها، أم هي مقبولة ولكن يجب تأويلها، أم هي لغة صحيحة سليمة مطردة يسوغ القياس عليها والافتداء بها ؟

٤ - الكلام عن اللغة والنحو: هل هما توقيفان قديمان أم حادثان متطوران؟ وهل نشأ معاً أم متعاقبين؟

٥ - التحقيق فيما إذا كان النحو العربي قد اعتمد في أوائله على غيره من نحو الأقاليم الأخرى، والحديث عن الحركات وتطورها.

٦ - سرد تعريفات شتى لعلم النحو من حيث هو، وبيان لصلته الوثيقة بفروع العربية الأخرى وليدان هذه الفروع جميعاً.

٧ - الكشف عن أسبق هذه الفروع إلى الوضع والتدوين مع الإسهاب في تعليل ذلك بالإفاضة في موضوع اللحن في الإعراب على السنة العامة والخاصة وفيما ألف في هذا الموضوع.

٨ - عرض كافٍ لقضية وضع النحو ووضعه وقت الوضع مع إظهار ما في ذلك كله من اضطراب في الأقوال الكثيرة وعمامية في الروايات المتعددة، وقد أوردت في سبيل تجلية ذلك كثيراً من النقل وفيضاً من الاعتراضات والإجابات عليها، كذلك ابنت الاضطراب الذي أصاب الروايات المتعلقة بالسبب الذي حمل أبا الأسود في أرجح الأقوال على وضع النحو، وبأول الأبواب التي وضعها فيه، وأظهرت الميل إلى أن تكون هذه الروايات المضطربة سبباً وجيهاً يحمل على غلبة الظن بتعدد بواعث وضعه أبواب النحو المتعددة لا بتوحيدها.

٩ - إيضاح للظروف التي نما النحو فيها وأزدهر في البصرة والكوفة بالذات مع بيان لكيفية نشوئه ثم لمراحل تطوره المتعاقبة ولما فيها من علامات بارزة جديرة بالتسجيل، يضاف إلى ذلك حديث سريع عن الخليل وسيبويه كائنين من أقدم النحاة وأبرزهم على مرّ العصور، وكذلك عن كتاب سيبويه والطابع العام للدرس النحويّ فيه وظاهرة تضمّنه أقوال أستاذه الخليل.

١٠ - تسجيل ما آل إليه الدرس النحوي في مرحلته الأخيرة الممتدة إلى اليوم من تأثر مغرط بالمنطق مع التمثيل لهذا، وذلك بصرف النظر عما تخلل هذه المرحلة أخيراً من محاولات بعض المعاصرين غير الحاسمة في سبيل نحو ميسر مبسط سهل.

١١ - رواية شيء من مواقف بعض النحاة القدامى في رفض الاتجاه الفلسفي في الدرس النحوي، ثم دفاع عن النحو التقليدي ودعوة إلى التوسط بين طرفي النقيض بالأخذ بهذا النحو مع الحرص على تنقية بعض مسأله التي غلبت عليها التعمية والتكلف والتعقيد والافتعال من هذه الشوائب.

١٢ - إيراد مواقف طريفة وأشعار طريفة لأناس من الخاصة والعامة في كره النحو وهجاء النحاة ثم سرد مائوات أخرى تضادها في الاتجاه فتدعو إلى درس النحو وحبّه والاهتمام به، وقصص لطيفة تظهر فائدته ومنزلة النحاة وتكشف عن مدى اعتزازهم بأنفسهم وعن صور من تكريم المجتمع لهم وتحت على الاقتداء بهم والاطلاع على آثارهم.

* * *

لابدّ - ليكون للكلام على علم النحو ثمرته المفيدة القائمة على اساس واضح متين - من التعرّض للغة لأنها ميدانه الفسيح ومادّته التي بني عليها ودار فيها، فاللغة العربية هي اللغة التي نطق بها افراد القبائل في شبه الجزيرة، وكانت متنوعة بتنوع هذه القبائل، وهو ما يعرف بالللهجات. وقد سادت لهجة قريش غيرها من اللهجات «لأن الله تعالى اختارهم من جميع العرب واختار منهم محمداً صلى الله عليه وسلم، فجعل قريشاً قطان حرمه وولاية بيته، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يقدون إلى مكة للحج ويتحاضرون إلى قريش في دارهم، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة السننّها إذا انتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفي كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب»^(١).

ويبدو أنّ هذا القول حمل فريقاً من الباحثين^(٢) على أن ينفي وجود لهجة خاصة لقريش، وعلى أن يعدّ ما سُمّي بلهجة قريش مزيجاً من لهجات القبائل تكوّن على مرّ الزمن وأنتهى به الأمر إلى أن يكون لهجة الحجاز الذي تسكنه قريش.

وقد رُدّ هذا بأنّ لقريش لهجة خاصة ممتازة وأنّ هذه كانت تهضم ما يحد إليها من اللهجات الأخرى، وسواء أتمحت اللهجة القرشية الأولى وحلّ محلّها هذا الخليط من اللهجات الأخرى أم لم تنمح فإننا ما نزال نجد أنفسنا أمام لهجة متماسكة ومتميّزة عن غيرها من اللهجات الأخرى ويستوى في ذلك أن نسمّيها لهجة قريش أو لهجة الحجاز^(٣).

وأياً ما كان الأمر فإنّ الاهتمام بلهجة قريش التي كانت لغة القرآن والتي أورتتنا الكثير من الآثار الدينية والأدبية ينبغي أن لا يصرفنا عن الاهتمام باللهجات العربية الأخرى التي تشترك مع لهجة قريش في الخصائص العامة للغة العربية، فقد قرئت بعض آيات القرآن بغير لهجة قريش على ما رأيناه في قراءة عاصم وحمزة والكسائي من السبعة بكسر حاء «حج» من قوله تعالى: «وَلله على الناس حجّ البيت... الآية»^(٤) وهي لغة نجد^(٥)، وعلى ما نراه في قراءة ورش مثلاً لقوله تعالى: «فمَنْ أوتي كتابه بيمينه»^(٦)، بضمّ النون^(٧)، وقوله تعالى: «قد أفلح المؤمنون»^(٨)، بفتح الدال، وذلك للنقل^(٩)، وفي قراءة الحسن وزيد بن عليّ على لغة تميم لقوله تعالى: الحمد لله بكسر الدالّ للاتباع^(١٠)، كذلك كان كثير من فحول الشعراء ممّن يحتجّ بشعرهم من غير قريش كالفرزدق القائل:

ما أنت بالحكم الترضى حكومته ولا الأصيل ولا ذي الرأي والجدل

حيث لم يجعل النحاة «ما» في البيت حجازية وما بعدها اسمها وخبرها مراعاة للغة الشاعر صاحب البيت لأنّه تميمي، وبنو تميم تهمل ما، وإنّما إعمالها لغة أهل الحجاز^(١١) ولولا المزايا الخاصة التي أنفردت بها كل لهجة ما اختلف التميميون وغيرهم مع الحجازيين الذين لا يشكّ أحد في فصاحتهم جميعاً على اختلاف قبائلهم، بل ما كانت لغة تميم أقيس أحياناً من لغة الحجاز، وتشهد صور الخلاف المتعددة بين اللهجات

العربية التي نقلها إلينا النحويون بما كان للهجة تميم خاصة من قوة ونفوذ في بعض المسائل ربّما فاقت قوة لهجة قريش ونفوذها، من هنا فإنّ «الناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطيء وإن كان غير ما جاء به خيراً منه»^(٤)، أمّاماً وجدناه في بطون الكتب القديمة من شواهد سمعت بلهجات أخرى غير لهجة قريش وتناقضت لذلك مع القواعد النحوية الموسوعة وفاقاً للهجة القرشية وأتمس النحويون لها تخريجات شتى كالحمل على الشذوذ أو التأويل ليقبلوها بعد أن يجعلوها منسجمة مع ماقدّموا، فهو في الحقيقة من بقايا اللغة العربية في مراحلها الأولى يوم كانت لا تلتزم تماماً طرق الأداء وعلامات الإعراب المعروفة، يتمثل هذا في القاعدة النحوية القاضية بإفراد الفعل مع الفاعل المثنى أو الجمع، إذ رأينا أمثلة متعددة^(٥) تخالف هذه القاعدة، وقد سميت لغة (اكلوني البراغيث) وهي لغة قبائل من العرب هم أزد شنوءه أوطيء أو بلحارث، وهذا يحملنا على الاعتقاد بأنّ هذه اللغة في التعبير أسبق من القاعدة النحوية وأنها صحيحة فصيحة لا داعي لتخريجها لتتفق مع قاعدتهم، وهي كذلك منسجمة إذ الأليق أن يجمع الفعل مع الجمع ويثنى مع المثنى ويفرد مع المفرد، لذلك رأينا الثعالبي مثلاً يذهب إلى أنّ العرب ربّما جمعت الفعل عند تقدمه على الإسم «لأنّه الأصل»^(٦) فاللغة ينبغي أن تدرك بالذوق والحسّ قبل المنطق والعقل اللذين أعتمدهما النحاة في هذه المسألة ليقموا عليهما قولهم بأنّ حالة إفراد الفعل مع تثنية الفاعل أو جمعه هي القياس وأنّ ترك ذلك خروج عنه^(٧)

ومردّ ما تمكّن النحاة من تخريجه من الشواهد التي خالفت القواعد، وما استعصى عليهم تخريجه منها فسّموه لذلك لحناً، هو في الحقيقة أنّهم لم يعرفوا اللهجات الأخرى غير لهجة قريش معرفة واسعة أو لم يطلعوا عليها أطّلاعاً كافياً أو وظنّوا خطأ بأنّ العرب أصحاب اللغة يغلطون أو يتكلمون على غير قياس لغتهم، ولو لم يكن ذلك كلّهُ لقبولوا كلّ الشواهد وصحّحوها وأسندوها إلى لهجاتها المتعددة المقبولة دون حاجة إلى التأويلات البعيدة والتخريجات العجيبة.

وقد جرى الخلاف في اللغة العربية نفسها، أي توقيفية قديمة لم تعرف اللحن في مفرداتها والخطأ في قواعدها؟ أم هي حادثة متطورة لم توجد منذ أول عهدها كاملة

ناضجة وإنما سارت وفقاً لقوانين التطور الطبيعي ومزّت بمراحل الطفولة والشباب ثم النضوج الذي نراه متمثلاً فيما نقراه من آثارها التي بلغت درجة شاملة من التنوع والانتساع والدقة والانضباط والرقمّ والقدرة على التعبير عن أدقّ الأشياء وأعمقها مع الالتزام بطرق الأداء الخاصة وبالنظام الدقيق في ملاحظة علامات الإعراب من حركات وحروف.

وكما ذهب ابن فارس^(١٢) وغيره إلى أنّ اللغة توقيفية قديمة صحيحة الإعراب لم تعرف للحن ولا الخطأ في مفرداتها وقواعدها، ذهبوا إلى أنّ النحو كذلك توقيفيّ قديم نشأ مع اللغة التي لم يعرف أصحابها اللحن والخطأ فيها، والأولى خلاف ذلك في الأمرين معاً، لأنّ اللغة في حياتها تخضع لتطور المجتمع، فكُلما اتّسع اتّسعت وتعدّدت تراكيبيها، وأساليبيها تتشكّل في العادة وفق ما يستلزمه نموّه في جميع نواحي الحياة فيه، وحين تستطيع اللغة مسابقة المجتمع في إحساسه وتصوره وخياله وإدراكه فإنّ ثروتها في التراكيب والأساليب والمفردات تكون قد استكملت إلى حدّ كبير، وتكون بذلك قد أصبحت أرضاً صالحة ممهّدة لاستخراج الملاحظات النحوية منها ثم لاستنباط النحاة قواعدهم وأحكامهم النحوية تبعاً لهذه الملاحظات.

إنّ هذا يعني بوضوح أنّ النحو لم ينشأ مع اللغة وإنما كان مرحلة لاحقة من مراحل نموها ومظهراً تالياً من مظاهرها، وأنّه وليد العقل في حين أنّ اللغة كانت وليدة الحسّ الذي يسبق وجوده وجود العقل على المعتاد على ما يدلّ عليه عدم وجود النحو إلّا في اللغات الراقية بآثارها الأدبية والعلمية الواسعة.

والنحو على كل حال هو مجموعة القواعد التي تلتزم بها أساليب اللغة في طرق أدائها للمعاني مع السير على نهج هذه القواعد ووضعها موضع التنفيذ عن طريق اتّزام كل حالة من حالات الإعراب المختلفة في كل حالة من حالات الكلمة بالنسبة لموضعها من الجملة كالإتزام الرفع في كل فاعل والأتزام النصب في كل مفعول والأتزام الجزر والجزم في أماكنهما.

وقد سمّي هذا العلم في مرحلته الأولى زمن عليّ وأبي الأسود (العربية) ولم يقصد بها أنذاك القواعد التي تضبط اللغة وتعلّم النطق بها وهو المعنى الإصطلاحي

الذي أخذ يقصد من النحو أخيراً بعد أن مرّ بما يفيد شموله للمقصود بعلم الصرف الآن ثم سار بعد ذلك خطوات واسعة في طريق التّموّ فتخصّص بمعناه الدقيق ووضعت فيه مؤلفات خاصة بأسمه اقتصرت على أبحاثه وحدها .

والمعنى اللغويّ العام للنحو هو الاتجاه والقصد، ثم سُمّي هذا العلم بهذا الاسم أخذاً من هذا المعنى بعد أن خصص عمومه بالمعنى الاصطلاحي الخاص للمناسبة بينهما، وتخصيص العام أمر شائع كصرف الكتاب إذا أطلق إلى كتاب سيوييه وصرف الصلاة إذا أطلقت وهي في اللغة الدعاء إلى العبادة المعروفة، قال ابن جني عن النحو «هو في الأصل مصدر شائع أي نحوت نحواً كقولك قصدت قصداً، ثم خصّ به أنتحاء هذا القبيل من العلم»^(١٣) .

ويبدو أنّ لفظ النحو والنسبة إليه كان ممّا جرت به الألسنة قديماً فقد اصطلاح على تلقيب يوحنا^(١٤) الاسكندراني النصراني الذي عاش زمن الرسول وأدرك فتح عمرو بن العاص لمصر ببيحي النحوي. ولكن المشهور أنّ علم النحو إنما سُمّي^(١٥) بهذا الاسم لقول عليّ لأبي الأسود لما عرض عليه ما أستنبطه وأهتدى إليه من بعض أسسه: ما أحسن هذا النحو الذي قد نحوت!! أتج هذا النّحو. وهو الظاهر لأنّ كلمة نحويّ أطلقت قديماً على اللغويّ وسأوتها^(١٦) أي المعنى مما يحمل على الاعتقاد بأنّ تلقيب يوحنا بهذا اللقب لم يقصد به أنه يدرس النحو ويضيف إليه بالمعنى الذي يفهم الآن منه .

وقد عاد فريق من الباحثين بالنحو العربي إلى أمم أخرى لما لا حظّوه من نشوئه والاشتغال به في العراق على يد نحاة كان كثير منهم من غير العرب الذين أفادوا من لغاتهم الأصلية في وضع قواعد النحو العربيّ وتقسيمه وتبويبه حيث ظهر ناضجاً فجأة في كتاب جامع هو كتاب سيوييه، ولما وجدوه من التشابه بينه وبين النحو السرياني أو الكلداني أو اليوناني في التبويب وفي تقسيم الكلمة وفي حركات الإعراب على سبيل المثال، يقول جرجي زيدان عن النحو العربيّ «يغلب على ظنّنا أنهم نسجوا

في تبويبه على منوال السريان لأنَّ السريان دَوَّنوا نحوهم وألَّفوا فيه الكتب في أواسط القرن الخامس للميلاد... فالظاهر أنَّ العرب لمَّا خالطوا السريان في العراق اطلعوا على آدابهم وفي جملتها النحو فأعجبهم، فلما أضطروا إلى تدوين نحوهم نسجوا على منواله لأنَّ اللغتين شقيقتان، ويؤيِّد ذلك أنَّ العرب بدأوا بوضع النحو وهم في العراق بين السريان والكلدان، وأقسام الكلام في العربية هي نفس أقسامه في السريانية^(١٦) ويقول عن الحركات «أول من رسمها أبو الأسود الدؤلي فإنَّه وضع نقطاً تمتاز بها الكلمات أو تعرف بها الحركات... والأرجح أنَّه اقتبس ذلك من الكلدان أو السريان جيرانه في العراق... أما صور الحركات التي وصلت إلينا نعني الضمة والفتحة والكسرة فلا نعلم واضعها أو واضعيها ولا الزمن الذي وضعت فيه، ولكن الغالب أنَّها وضعت في القرون الأولى للإسلام... اقتداء بالسريان^(١٧) ويقول الرافعي إنَّ دلائل الحركات الخطية لم تكن عند العرب «بل اخترع أصولها السريان حينما تنصَّروا وأرادوا ضبط قراءاتهم في الأناجيل، فوضعوا علامات صغيرة تدلُّ على الحركات... ولا يزال أثر هذه الطريقة في المصاحف المخطوطة في القرن الثاني للهجرة^(١٨)؛ ويوافق أحمد أمين على أنَّه حدث تأثير ضئيل من اليونان والسريان في النحو العربي في العصر الأول لوضعه وأنَّه لم يلبث أن تطور بعد نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية إلى تأثر النحو العربي بها في قواعده وعلله^(١٩)»

ويرى فريق آخر من الباحثين أنَّ الصلة الوثيقة بين اللغة العربية وبين غيرها من اللغات السامية كالسريانية والعبرية التي تشعبت جميعاً عن أصل واحد قديم لا تعني بالضرورة اعتماد العربية على غيرها، فالعكس ممكن فرضاً مادامت القضية احتمالاً، كما يرى هذا الفريق أنَّ النحو العربي يدور على نظرية العامل وهي لا توجد في أيِّ نحو أجنبي، وأنَّ انبعاث النحو في العراق وتصدَّر العناصر غير العربية لدراسته لا يعني أكثر من أنَّ الحاجة الداعية إلى إيجاد هذا العلم إنَّما كانت فساد الألسنة باختلاط العرب بالعجم، ومن الطبيعي أن يكون ذلك أكثر ما يكون في الأماكن التي يكثر فيها هؤلاء الأعاجم كالعراق، وأنَّ الأعاجم الذين أقبلوا على النحو العربي إنَّما فعلوا ذلك لحاجتهم إلى تفهم الدين الجديد الذي اعتنقوه عن طريق دراسة قواعد لغته، وأنَّ المشابهة القليلة بين النحو العربي ونحو اليونان في تقسيم الكلمة عند العرب إلى اسم

وفعل وحرف مثلاً أسوة بتقسيم اليونان الكلمة إلى اسم وفعل ورباط، وفي بعض المصطلحات النحوية العربية أيضاً التي أشبهت مثيلاتها في منطق اليونان مردها إلى أن تأثر العرب بمنطق اليونان وفلسفتهم إنما كان في تنظيم النحو وتهذيبه وتقسيمه وفي بعض مصطلحاته وأساليبه وفي طرق الحجاج والمناقشة فيه، ولم يكن التأثر في أصول النحو وأساسه لأن هذه كانت قد وضعت قبل نقل المنطق اليوناني إلى العربية وقبل أن تزدهر حركة الترجمة إليها من غيرها، وأن ما يقال من أن تأثر النحو العربي المباشر بنحو الأجانب أدّى إلى الطفرة فيه وإلى أكماله المفاجيء في كتاب سيبويه ليس دقيقاً لأن فكرة النحو العربي فكرة قديمة ترجع إلى منتصف القرن الأول للهجرة، وقد أخذت قواعده تنمو وتتطور إلى أن نضجت واكتملت في أواخر النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة وليس من المعقول أن يكون في الأمر طفرة ليس في مقدور العرب أن يفعلوها وحدهم بعد هذا الزمن الطويل من التطور من أبي الأسود المتوفى سنة ٦٩هـ إلى سيبويه المتوفى سنة ١٨٨هـ، والأمر في حقيقته لا يخرج - فيما أظن - عما يقال من أن نحاة البصرة الأولين قد عرفوا أن لبعض اللغات الأجنبية نحواً فحاولوا أن يضعوا للعربية نحواً مماثلاً معتمدين في ذلك على ملكاتهم العقلية التي رقيت بتأثير ما وقفوا عليه من الثقافات الأجنبية وخاصة فلسفة اليونان^(٢٠) ومنطلقهم فأبدعوا علم النحو ابتداء على ما قاله ليطمان^(٢١) الذي أضاف «أنه لا يوجد في كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو والذين تقدّموه»^(٢٢) وعلى ما قاله فايل من أن الرواية العربية حفظت لنا «في مجموعات مختلفة من كتب التراجم وصفاً لمسلك نمو هذا العلم الذي هو أجدر العلوم أن يعدّ عربياً محضاً»^(٢٣) وما راه دي بور من أن علم النحو اثر راسع من آثار العقل العربي يحقّ للعرب أن يفخروا به، وأن العرب لم يكونوا يحبّون أن تعكّر عليهم النظريات الفلسفية العامة صفاء اللذة التي يجدونها في دقائق لغتهم وأنه كثيراً ما نقرّ اساتذة اللغة المتشددون من صيغ لغوية أتى بها مترجمو الكتب الأجنبية^(٢٤)!

ومثل هذا الذي قيل في تطور قواعد النحو يقال في تطور الحركات التي نشأت رموزها كالنحو بسيطة كنقطة فوق حرف أو بين يديه أو تحته، ثم تطورت مثله إلى وضعها الحالي كحركات مأخوذة من الحروف المشابهة لها حين اكتشف الخليل بن أحمد الرابطة بينهما.

وقد عرّف أهل الصناعة من القدامى وغيرهم النحو وحده بتعريفات متعددة بعضها يبغي إلى بعض وحدّوه حدوداً تشمل الصرف معه ويؤدي بعضها أيضاً إلى بعض نختار منها جميعاً ما قاله ابن جنّي المتوفى سنة ٢٩٢هـ من أنّه «انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقيق والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شدّ بعضهم عنها ردّ به إليها»^(٢٤) وما قاله عبدالقاهر المتوفى سنة ٤٧١هـ «وأعلم أن ليس النظم إلّا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها.... فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلّا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه إلّا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وتلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه»^(٢٥) وما نقله السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ عن صاحب المستوفى وهو أنّ «النحو صناعة علمية ينظر لها أصحابها في الفاظ العرب من جهة ما يتألف بحسب استعمالهم لتعرف النسبة بين صيغة النظم وصورة المعنى فيتوصل بإحدهما إلى الأخرى»^(٢٦) وتعريف الأشموني المتوفى سنة ٩٢٩هـ له بأنّه «العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي أنتلف منها»^(٢٧) وتعريف الخضري المتوفى سنة ١٢٨٧هـ له بأنه «يطلق على ما يعمّ الصرف تارة وعلى ما يقابله أخرى ويعرّف على الأول بأنه علم بأصول مستنبطة من كلام العرب يعرف بها أحكام الكلمات العربية حال أفرادها كالإعلال والادغام والحذف والإبدال وحال تركيبها كالإعراب والبناء وما يتبعهما من بيان شروط لنحو النواسخ وحذف العائد وكسر إنّ أو فتحها ونحو ذلك وعلى الثاني يخصّ بأحوال التركيب»^(٢٨)

وللنحو صلة وثيقة بفروع العربية الأخرى، فهو من هذه الفروع يرتكز وسائرهما

على كلام العرب، ويبحث مثلها فيه، ويتعرف بالاشتراك معها على جميع نواحيه من اساليب وتراكيب في مطلق الكلام، وأوزان وقوافٍ في الشعر منه، وبنيات للكلمات وضبط للأواخر وغير ذلك. ولقد كان النحو أسبق هذه الفروع وضعاً وتدويناً لأنّ اللحن تسرّب إلى الإعراب قبل غيره لذلك احتاجوا أولاً إلى ما يعصم اللسان عن الخطأ فيه، ومرّد اللحن إلى اتساع رقعة الدولة الإسلامية واختلاط العرب بسواهم وتلاقي لغتين أو أكثر في الألسنة، وهذا - كما هو المتصوّر - يؤثّر فيها، فتُدخِلُ كلُّ لغة الضيم على صاحبها. وقد خشي المسلمون على القرآن كما خافوا على اللغة من هذا اللحن فبادر علماءهم إلى وضع القواعد التي تضبط اللغة وتعين على فهمها وادائها المعاني وتيسّر في الوقت نفسه لغير أبنائها سبل تعلّمها وإجادتها، وقد وصف ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ الأمر كنه وصفاً دقيقاً شاملاً فقال «لما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز... وخالطوا العجم تغيّرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعرّبين... ففسدت بما ألقى إليها ممّا يغيّرها لجنوحها إليه بأعتياد السمع، وخشي أهل الحلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً ويطول العهد فينقلق القرآن والحديث على الفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه منها بالأشباه مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع، ثم رأوا تغيّر الدلالة بتغيّر حركات هذه الكلمات فأصطلحوا على تسميته إعراباً وتسمية الموجب لذلك التغيّر عاملاً وأمثال ذلك، وصارت كلّها اصطلاحات خاصة بهم ففقدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة وأصطلحوا على تسميتها بعلم النحو»^(٢٩)

ولقد بدأ اللحن في السنة العامة، وأشتهر من أمثلة ذلك قولهم في البداية هذه عصاتي^(٣٠) بدل عصاي، وقولهم بالعراق حيّ على الصلاة بكسر الياء بدل فتحها، وقول اعرابي مؤذّن قال أشهد أنّ محمداً رسول الله بنصب رسول: ويحك يفعل ماذا؟ وقد ألّفت كتب فيما تلحن به العامة ككتب الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ وأبي عبيدة المتوفى سنة ٢١٠هـ والمازني المتوفى سنة ٢٤٩هـ وأبي حاتم السجستاني المتوفى سنة ٢٥٠هـ، ثم تسرّب إلى السنة الخاصة فصنّفت لهم بعد ذلك كتب فيما لحنوا فيه ككتاب

ما تلحن فيه الخاصة لأبي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥هـ وكتاب درة الغواص في
أوهام الخواص للحريري المتوفى سنة ٥١٦هـ الذي وضع الجو اليقي المتوفى سنة
٥٢٩هـ تتمته.

وفي واضع النحو وتاريخ الوضع اضطراب في الأقوال وعماية اتسعت لتضارب
الآراء، فقد رُجم أنّ واضعه نصر بن عاصم^(٢١) المتوفى سنة ٨٩هـ وأنّ أول كتاب وضع
في النحو كان له على التحقيق^(٢٢)، أو عبد الرحمن بن هرمز^(٢٣) المتوفى سنة ١١٧هـ، قال
أبن النديم «قرأت بخطّ أبي عبدالله بن مقلّة عن ثعلب أنّه قال: روى أبن لهيعة عن أبي
النضر قال: كان عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية^(٢٤)، أو ابن أبي إسحاق^(٢٥)
المتوفى سنة ١١٧هـ، ورُجم ابن^(٢٦) فارس وغيره أنّ النحو قديم في العرب أبلقته الأيام
وقلّ في أيدي الناس ثم جدّده الإسلام على يد أبي الأسود بإرشاد الامام عليّ، وقد غلا
ابن فارس في هذا غلواً شديداً إذ نسب للعرب العاربة معرفتهم بمصطلحات النحو
بتوقيف من قبلهم حتى أنتهى الأمر إلى الموقف الأول وهو الله الذي علّم آدم الأسماء
كلّها.

والمختار لا يعدو أن يكون عليّاً المقتول سنة ٤٠هـ لما روي عن أبي الأسود أنّه
سئل «من أين لك هذا النحو؟ فقال: لفقت حدوده من عليّ بن أبي طالب»^(٢٥) ولقول أبي
عبيدة وغيره «أخذ أبو الأسود النحو عن عليّ بن أبي طالب»^(٢٦) ولما رواه أبن النديم من
أنّ محمد بن إسحاق قال «زعم أكثر العلماء أنّ النحو أخذ عن أبي الأسود الدؤلي،
وأنّ أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب»^(٢٧)، ولما ذكره الأنباري من
أنّ الصحيح أنّ أول من وضع علم العربية وأسّس قواعده وحّد حدوده أمير المؤمنين
عليّ بن أبي طالب، وأخذ عنه أبو الأسود^(٢٨)، ولقول الغفطي «الجمهور من أهل الرواية
على أنّ أول من وضع النحو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب»^(٢٩) ولقوله أيضاً «رايت
بمصر في زمن الطلب بأيدي السوزاقين جزءاً فيه أبواب من النحو يُجمعون على أنّها
مقدّمة عليّ بن أبي طالب التي أخذها عنه أبو الأسود الدؤلي»^(٣٠) ولقوله كذلك «وأهل
مصر قاطبة يرون بعد النقل والتصحيح أنّ أول من وضع النحو عليّ بن أبي طالب

وأخذ عنه أبو الأسود الدؤلي، وأخذ عن أبي الأسود الدؤلي نصر بن عاصم^(٢٩) أو أن يكون أبا الأسود الدؤلي نفسه المتوفى سنة ٦٩هـ بأمر عليّ أو زياد بن أبيه أو ابنه، لما لوضع النحو من خطورة تقتضي التفرغ التام، وهو متاح لأبي الأسود، في حين تقضت حياة عليّ وغيره في الكفاح وسياسة الناس، روي أنّ رجلاً بمدينة الحديثة اسمه محمد بن الحسين كان جماعة للكتب وقد آلت إليه خزانة صديق له كان مشتهراً بجمع الخطوط القديمة، قال ابن النديم «فرايتها وقلبتها فرايت عجباً إلا أنّ الزمان قد أخلقها وعمل فيها عملاً أدرسها.... ورايت ما يدلّ على أنّ النحو عن أبي الأسود ما هذه حكايته، وهي (أربعة) أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها: هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر»^(٣٠) وقال محمد بن سلام الجمحي «كان أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي»^(٣١) وقال ابن قتيبة إنّ أبا الأسود «يعدّ في... النحويين لأنّه أول من عمل في النحو كتاباً»^(٣٢)؛ وذهب معاصر إلى أنّ أبا الأسود استعرض طائفة من كلام العرب وتوصّل إلى استنباط بعض القواعد بإرشاد الإمام عليّ وأسمائها النحو ودونها في صحيفة له عرفت عند النحاة بالتعليقة وهي أول كتاب دُوّن في علم اللسان العربي^(٣٣).

على أنّ أبا الأسود لم يسلم ممّن يشكّك في أولية وضعه النحو بحجة أنّ عصره لم يكن يتواءم مع ما نسب إليه من الاصطلاحات^(٣٤) الوضعية المرتبة، فعل هذا الاستاذ أحمد أمين حين ذهب إلى أنّ الرواة يكادون يتفقون على أنّ أبا الأسود ابتكر شكل المصحف، وإلى أنّ هذا يعدّ خطوة أولية في سبيل النحو تتمشى مع قانون النشوء، وأنّه من الممكن أن تأتي من أبي الأسود، وأنّ هذا «يلفت النظر إلى النحو، فعمل أبي الأسود يسلم إلى التفكير في الإعراب ووضع القواعد له.... وأنّ هذه الأمور لما توسّع العلماء فيها بعدد وسّموا كلامهم نحواً سحبوها اسم النحو على ما كان قبل من أبي الأسود وقالوا: إنّه واضع النحو للشبه في الأساس بين ما صنع وما صنعوا، وربما لم يكن هو يعرف اسم النحو بتاتاً... إنّما الذي له الفضل الأكبر في ذلك الخليل بن أحمد ذو العقل الجبار المبتكر الذي قلّ أن يوجد له نظير في علماء ذلك العصر، والذي عكف على العلم يخترع فيه ويستنبط أصوله من فروعه على طريقة لم يسبق إليها... وهو

الذي عمل النحو الذي نعرفه إلى اليوم»^(١٥).

وفعل هذا أيضاً الأستاذ إبراهيم مصطفى الذي عُدَّ ثِقَلُ فِكْرَةِ وَضْعِ أَبِي الْأَسْوَدِ لِلنَّحْوِ أَمْرًا لَا يَسْتَسَاغُ وَقَالَ «إِنَّهُ لَا يَعْقِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الزَّمَنُ الْمُبَكَّرُ قَدْ تَمَكَّنَ فِيهِ الْعَرَبُ مِنَ الْإِسْتِغَالِ بِالْعُلُومِ وَوَضَعَ الْقَوَاعِدَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الَّذِي نَرَاهُ فِي كِتَابِ الْعَرَبِيَّةِ، وَقَدْ أَنْكَرَ ذَلِكَ^(١٦) الْمُسْتَشْرِقُونَ وَعَدَّوْهُ حَدِيثَ خُرَافَةٍ، وَلَقَدْ سَأَقْنَا هَذَا الْإِشْكَالَ إِلَى أَنْ نَنْتَهِيَ سَبِيلًا أُخْرَى فِي الْبَحْثِ فَتَبَّعْنَا كِتَابَ النَّحْوِ الْبَاقِيَةَ بِأَيْدِينَا لِنَعْلَمَ أَقْدَمَ عَالَمٍ نَسَبَ إِلَيْهِ رَأْيَ نَحْوِيِّ فِي هَذِهِ الْكُتُبِ، وَكَانَ أَوَّلُ هَذِهِ الْكُتُبِ كِتَابَ سَبِيئِيَّةِ، وَيَلَاظِحُ أَوَّلَ مَا يَلَاظِحُ أَنَّنَا لَمْ نَجِدْ فِي كِتَابِ سَبِيئِيَّةِ وَلَا فِي مَا بَعْدَهُ مِنَ الْكُتُبِ رَأْيًا نَحْوِيًّا نَسَبَ إِلَى أَبِي الْأَسْوَدِ وَلَا إِلَى طَبَقَتَيْ بَعْدِهِ، فَنَحْنُ أَمَامَ حَقِيقَةٍ وَاضِحَةٍ أَخَذَتْ مِنْ كِتَابِ النَّحْوِ وَهِيَ أَنَّ أَقْدَمَ مَنْ نَسَبَ إِلَيْهِ رَأْيَ نَحْوِيِّ هُوَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي إِسْحَاقَ الْحَضْرَمِيِّ^(١٧)، أَمَّا عَمَلُ أَبِي الْأَسْوَدِ فَقَدْ كَانَ نَقَطَ الْمَصْحَفِ كَمَا أَشَارَتْ إِلَيْهِ الرِّوَايَاتُ لِضَبْطِهِ عَلَى سَبِيلِ الْعَرَبِ وَسَمَتَهَا فِي الْقَوْلِ، وَذَلِكَ مَا كَانَ يَقْصِدُهُ الرِّوَاةُ مِنْ كَلِمَةِ النَّحْوِ، وَهُوَ عَمَلٌ طَبِيعِيٌّ فِي صَدْرِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، أَمَّا هَذِهِ الْقَوَاعِدُ النَّحْوِيَّةُ الَّتِي كَتَبَ لَهَا هَذَا الْعَمْرُ الطَّوِيلَ فَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ نَهَجَ سَبِيلَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِسْحَاقَ، وَقَدْ دَخَلَ عَامِلٌ أُخْرَى فِي الْأَمْرِ وَهُوَ هَوَى بَعْضِ الْمُؤَلِّفِينَ إِذْ كَانُوا يَحِبُّونَ أَنْ يَنْسَبَ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى عَلِيِّ وَشِيعَتِهِ، فَخَفِيَتْ الْحَقِيقَةُ حَتَّى أَنْ يَجْلِيَهَا الْبَحْثُ فِي كِتَابِ النَّحْوِ ذَاتَهَا لَا فِي أَخْبَارِ الطَّبَقَاتِ»^(١٨).

في حين ناقش الشيخ محمد الطنطاوي هذه الشكوك فقال «نحن لا ندعي أن أبا الأسود قد وفق إلى النحو على غرار ما نراه في كتبنا من تعريفات ومصطلحات وتقاسيم فإن طبيعة عهده السابق على عصر المقتنين تقتضي مجرد اتجاهه إلى أبواب هذا العلم إجمالاً حسيماً تقتضيه الفطرة العربية... وذلك كافٍ في اعتباره المؤسس له... إلا أنه مما لا يختلف فيه أثنان أن النهضة بهذا العلم... كان عمادها الخليل بن أحمد... ومع هذا فإن عناصره الأساسية التي أهدى إليها أبو الأسود بتعليم وإقرار الإمام علي لم تتغير ولم تتبدل... على أننا لو تمثلنا شخصية أبي الأسود ونزعتة وعصره... لايقنا صحة هذه النسبة، فقد كان علوي الرأي يجاهر بتشييعه... وقد توالفت خلافة الأمويين زمناً ليس بالقصير وهم منطوون على نار من الحقد للعلويين واتباعهم... فكيف يدعون

امراً خطيراً كهذا يمضي على كَرِّ الزمان ويخلد في بطون الأسفار، وهم أحرص الناس على الغضِّ من شأن العلويين وشيعتهم ولاسيما في مثل هذا الشأن ذي البال والأثر الخالد،^(١٩)

وناقشها أيضاً مناقشة مستفيضة باحث معاصر آخر فذهب إلى أنّ ما دفع الاستاذ إبراهيم مصطفى إلى ما قاله هو على ما يبدو إنكار المستشرقين الذي عدّه حقيقة لا تقبل الجدل على الرغم من أنّ الرواة يكادون يجمعون على أنّ واضع النحو هو أبو الأسود بامر عليّ، وليس لهم مصلحة تجعلهم يؤثرون عالماً على غيره ولا والياً على آخر، وهم ليسوا متعصبين لأبي الأسود وعليّ ليدفعهم تعصبهم إلى بغض زياد وأبن أبي اسحاق، ونحن إن علمنا أنّ في تاريخ زياد ما يدعو إلى بغضه فلسنا نعلم من تاريخ ابن أبي اسحاق ما يدعو إلى كراهيته، بل إنّ الرواة ينسبون إليه أنّه كان الغاية في النحو شديد التجريد للقياس فيه، وأنه أوّل من علّله^(٢٠)؛ وحتى زياد نفسه فإنهم أيضاً ينسبون له أو لموافقته فضل فكرة ضبط المصحف لحفظه سليماً، لأنه كما يقولون الذي جمع الرجال الذين اختار منهم أبو الأسود من أعانه على إنجاز عمله.

وقد أضاف هذا الباحث أنّ أحداً لم يقل إنّ أبا الأسود وضع النحو كاملاً، فهو قد وضع فكرة أبواب استدعتها الظروف بدون دقة أو تفريع ممّا نراه اليوم في كتب النحو، ولا ينبغي على كل حال أن يستغرب منه التفكير في وضع قواعد عامة تساعد على ضبط اللغة بعد أن عمل على ضبط المصحف، وإذا كانت صلة أبي الأسود بعليّ ما نعرف، وإذا كان زياد في حياة عليّ من انصاره وقوّاده، فإنّه لن يكون عسيراً علينا أن نفهم الصلة التي تربط عليّاً بهذا الموضوع، أما المنهج الذي سار عليه الأستاذ إبراهيم ليعلم أقدم عالم نسب إليه رأي نحويّ في الكتب الموجودة بين أيدينا ففيه كثير من القصور لأنّه جعل الكتابة والتقييد معياراً له مع أننا نعلم أنّ الكتابة جاءت متأخرة عند العرب، وأنّ العلماء ظلّوا فترة طويلة يعتمدون على الرواة والحفاظ، وأنّ العناية في التدوين لم توجه في أول الأمر إلّا للمصحف، فليس بغريب إذن أن يتأخر تسجيل النحو، وليس بغريب كذلك ألاّ ينسب إلى أبي الأسود شيء في كتاب سيبويه، فعدم نسبة شيء إلى أبي الأسود إذن لا يدلّ على أنّه لم يكن له رأي في النحو، وأمّا ذهابه إلى أنّ مراد الرواة بالنحو الذي نسبوا وضعه لأبي الأسود هو نقط المصحف فحسب وأنّ

الأمر اختلط عليهم فظنوا أنه بذلك وضع النحو فهو مما لا يستقيم، إذ لا يعقل أن يختلط الأمر على الرواة وهم ينصون على نقط أبي الأسود للمصحف مرة وعلى وضعه مسائل من النحو مرة أخرى، وليس هناك في الوقت نفسه ما يدعوننا إلى أن نسيء الظن بالرواة وهم أكثر منا بحثاً في لغة العرب واقرب منا زمنياً لنشأة العلم، ثم ماذا نقول فيما ينسبه ابن عبد ربّه إلى أبي الأسود من أنه قال: من العرب من يقول لولاي لكان كذا وكذا، اليس هذا بحثاً في صميم النحو؟ ثم اليس ردّه على بني قشير حين قالوا بعد أن سمعوا أبيات:

يقول الأزدلون بنو قشير طوال الدهر لاتنسى عليا
فقلت لهم: وكيف يكون تركي من الأعمال ما يجدي عليا
أحبّ محمداً حبّاً شديداً وعباساً وحمزة والوصيا
فإن يك حبهم رشداً أصبه ولست بمخطيء إن كان غيا

شككت يا أبا الأسود في قولك: فإن يك حبهم، فقال أما سمعتم قول الله تعالى: وإنّا وإياكم لعلّ هدى أو في ضلال مبين؟^(١٤٦) اليس ردّه هذا استدلالاً في مسألة نحوية؟ وإذا كان ذلك لم يذكر في كتب النحو فإن ذكره في كتب الأدب لم يخرج عن طبيعته النحوية، كما لا يستطيع أحد أن يدعي أنّ عالماً ينقط المصحف كلمة كلمة ويلاحظ حركات حروفه حرفاً حرفاً ثم يخرج من عمله هذا دون أن تتكوّن لديه فكرة أولية عن شؤون النحو^(١٤٧)!

وأياً ما كان الأمر في هذا الموضوع فإنّه من العسير جداً تجليته تجلية تامة وبيان حقيقته على وجه القطع وذلك لكثرة ما فيه من الأقوال المتضاربة والروايات المتعددة والمواقف المتعارضة، فقد رأينا من يقول إنّ نسبة وضع النحو إلى الإمام عليّ دفعت إليها روح التشيع عند أصحابها كما هو الحال عند القائلين بذلك من القدماء، وأنها شاعت في البيئات الشيعية كما كان في مصر أيام القفطي، ويرى أنّ انشغال عليّ بمسئوليّاته الدينية والسياسية يحول في الحقيقة دون ذلك، بالإضافة إلى أنّ ابن سلام وهو أقدم من أثرت عندهم الرواية في هذا الموضوع لم يشر إلى مجهود عليّ في تأسيس النحو.

وهناك من يذهب إلى أنّ شبه الاجماع في جانب أبي الأسود وحده، وأنّ أحداً من الرواة حتى من بين من نسب وضع النحو إلى غير أبي الأسود لم يتعرض لنفي نسبة الوضع إليه، وأنّ ما رواه ابن النديم من أنّ عبدالرحمن بن هرمز أول من وضع العربية لا ينهض لأنّه رواية من مصدر واحد لا يوجد ما يدعمها من المنقول أو المعقول فضلاً عن أنّ ابن النديم نفسه ساقها في حديث واحد إلى جانب روايات أخرى تنسب وضع النحو لغيره فلا يعول عليها إذن إزاء شبه الإجماع في جانب الدوّلي، هذا بالإضافة إلى مصحف مخطوط^(٤٢) عثر عليه في مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط، وهو أثر مادي قديم جمع الشكل الذي وضعه أبو الأسود بمداد أحمر، ونقط الإعجام التي عرفت عن نصر بن عاصم بمداد أسود^(٤٣).

وهناك من ينادي بإخراج وضع نصر بن عاصم نقط الإعجام من دائرة النحو لأنّه ليس منه، ويعتقد في الوقت نفسه أنّ تأليفه كتاباً في النحو كما قيل لا يعني أنّه أول كتاب فيه لأنّ أبا الأسود قبله ترك صحيفة في النحو لم يكتب^(٤٤) غيرها، ولأنّ المدة التي عاشها نصر بعد وفاة أبي الأسود وهي عشرون سنة تسمح له بتأليف كتاب في النحو بعده، وهذا على كل حال لا يقوى على الطعن في نسبة أولية الوضع في النحو لأبي الأسود.

ومن الواضح أنّ حصيلة هذه الأقوال والمناقشات تؤول بقارئها إلى أن يشعر بأنه لا سبيل إلى تحقيق تاريخ وضع النحو البتّة، وإلى أنّ معرفة واضعه تكاد تكون معضلة، كما أنّها تفضي في الوقت نفسه إلى حقيقة تبدو وحدها مؤكدة وهي أنّ وضع النحو إنما كان في الفترة المحصورة بين عليّ المقتول سنة ٤٠هـ وعبدالرحمن بن هرمز المتوفى سنة ١١٧هـ وهي لا تتجاوز كثيراً سبعين سنة.

وقد أصاب الاضطراب أيضاً الروايات في السبب الذي حمل أبا الأسود على وضع النحو كما هو راجح على ما نطق به جمهور الرواة، فقد روي أنّه سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى «أنّ الله بريء من المشركين ورسوله»^(٤٥) بكسر اللام في رسوله فقال: ما ظننت أمر الناس يصل إلى هذا ووجدت عليّ زياد بن أبيه والي البصرة - أو عليّ أبنه عبيد الله

واليها من بعده - وقال له: إنني أرى العرب قد خالطت الأعاجم وتغيرت سنتهم افتانذن لي أن أضع للعرب ما يقيمون به كلامهم؟ وقيل إن رجلاً لحن أمام زياد - أو ابنه عبيد الله - فطلب من أبي الأسود أن يرسم للناس العربية، وقيل إنه رسمها حين سمع أبنته تقول ما أحسن السماء وهي لا تريد الاستفهام وإنما تريد التعجب فقال لها قولي ما أحسن السماء، وروي أنه شكا فساد لسانها لعلي فوضع له بعض أبواب النحو وقال له: انح هذا النحو. إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة المشهورة والمبشورة في ثانيا كتب التراجم وأمهات مصنفات الأدب.

ولا ينبغي لنا الشك في جميع أسباب وضع أبي الأسود النحو لتعدد رواياتها وتناقضها واضطرابها، والأقرب أن تؤدي بالنفس إلى الإطمئنان والثقة بأن سبب وضع النحو لا بد أن يعود إلى أسباب متعددة لا إلى سبب واحد إذ الالتيق أن يكون الباعث على الوضع التعدد في الخطأ والتنوع فيه وليس الخطأ الواحد الذي يمكن أن لا يكون حافزاً كافياً للقيام بمثل هذه المهمة الجليلة.

وكما اضطربت الروايات في السبب الذي حمل أبا الأسود على وضع النحو فإنها اختلفت كذلك في أول ما وضع من أبوابه بصرف النظر عن الواضع، فقد روي أن أبا الأسود «وضع باب الفاعل والمفعول به والمضاف وحروف الرفع والنصب والجر والجزم»^(٥٧) وروي أن أول من أصل النحو وأعمل فكره فيه «أبو الأسود الدؤلي ونصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز فوضعوا للنحو أبواباً وأصلوا له أصولاً، فذكروا عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم ووضعوا باب الفاعل والمفعول والتعجب والمضاف»^(٥٨) وروي أن «سبب وضع علي لهذا العلم ما روى أبو الأسود قال دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فوجدت في يده رقعة فقلت ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال إنني تأملت كلام الناس فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء - يعني الأعاجم - فأردت أن أضع لهم شيئاً يرجعون إليه ويعتمدون عليه ثم القى إلي الرقعة وفيها مكتوب، الكلام كله أسم وفعل وحرف، فالاسم ما أتى عن المسمى، والفعل ما أتى به، والحرف ما جاء لمعنى، وقال لي انح هذا النحو وأضف إليه ما وقع إليك، وأعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة: ظاهر ومضمر وأسم لا ظاهر ولا مضمر، وإنما

تتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمّر، وأراد بذلك الاسم المبهّم، قال أبو الأسود: فكان أول ما وقع لي إنّ وأخواتها ما خلا لكن، فلمّا عرضتها عليّ عليّ قال لي: وأين لكن؟ فقلت: ما حسبتها منها، فقال هي منها فالحقها، ثم قال ما أحسن هذا النحو الذي نحت، فلذلك سمّي النحو نحواً^(٥٩)!

وقد نشأ النحو ونما وأزْدَهَرَ في البصرة والكوفة حيث أستوطنهما العرب والعجم معاً وظهر اللحن فيهما بينهم ظهوراً لا مثيل له في سائر البلاد، قال أبو الطيب «ولا علم للعرب إلّا في هاتين المدينتين، فأما مدينة الرسول فلا نعلم بها إماماً في العربية، قال الأصمعي: أقمت بالمدينة زماناً ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة إلّا مصحفة أو مصنوعة، وكان بها ابن داب يضع الشعر وأحاديث السمر وكلاماً ينسبه إلى العرب فسقط وزهب علمه وخفيت روايته.... وممن كان بالمدينة أيضاً عليّ الملقب بالجمل وكان وضع في النحو كتاباً لم يكن شيئاً، وأما مكة فكان بها رجل من الموالي يقال له ابن قسطنطين يشدو شيئاً من النحو، فأخبرنا جعفر بن محمد، قال: أخبرنا إبراهيم بن حميد قال: أخبرنا أبو حاتم قال: وضع ابن قسطنطين بمكة شيئاً من النحو، ثم قدم البصرة فسمع النحو فطرح جميع ما كان عمل ووضع شيئاً آخر لا يساوي شيئاً أيضاً، وأما بغداد فمدينة ملك وليس بمدينة علم، وما فيها من العلم فمنقول إليها ومجلوب للخلفاء وأتباعهم ورعيّتهم»^(٦٠)!

ولقد مرّ علم النحو بمراحل تطور متعاقبة كانت في البداية سريعة وذلك بسبب ارتباطه بضبط القرآن والحديث حتى يظلاً بمنجاة من اللحن والتحرّيف ممّا جعله في حقيقة الأمر ثمرة من ثمرات الدراسة القرآنية، وهذه المراحل هي: إعراب القرآن بوضع رموز لحركات أو آخر كلماته وهو العمل الذي قام به أبو الأسود، ثم إعجامة لتميّز حروف الهجاء المتشابهة في الصورة بعضها عن بعض وهو ما قام به نصر بن عاصم، ثم استبدال ما فعله أبو الأسود بوضع الخليل بن أحمد الحركات التي نعرفها للإعراب مع بقاء نقط الإعجام على ما كانت عليه، وبعد هذا بدأ النحو يبحث في تأليف الكلام وعلته، ثم أتجه أخيراً عبر أزمان ممتدة طويلة إلى ما نراه من أشكال الدرس فيه على نحو ما هو مشاهد في أمهات كتب النحو عند المتأخرين.

ولقد ظهرت في مراحل التطور المتعاقبة علامات جديدة بالتسجيل، من ذلك: ضرب المثل وسوق الدليل لبيان صحة ما ذهب إليه أهله كما حدث في قصة أبي الأسود^(٦١) مع بني قشير، ومنه: إجابة العلماء على ما أصبح يوجّه إليهم من الأسئلة عن ضبط معين أو استعمال خاص كالذي روي من قول أبي الأسود «من العرب من يقول لولاي لكان كذا وكذا»^(٦٢) فالمظنون أن يكون هذا ردًا أو كالدرد على سؤال وجّه أو يمكن أن يوجّه إليه عن جواز استعمال الضمير بعد لولا، وكسؤال الحجاج ليحي بن يعمر المتوفى سنة ١٢٩ هـ «أتجدي الحن؟ قال: الأمير أفصح من ذلك، قال: عزمت عليك لتخبرني، وكانوا يعظمون عزائم الأمراء، فقال يحي بن يعمر: نعم في كتاب الله، قال: ذاك أشنع له، فلفي أي شيء من كتاب الله؟ قال: قرأت: قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله»^(٦٣) فترفع أحب وهو منصوب، قال إذا لا تسمعي الحن بعدها، فنغاه إلى خراسان»^(٦٤)

ومن هذه العلامات بدء التعليل والقياس على يد عبدالله بن أبي اسحاق الحضرمي المتوفى سنة ١١٧ هـ الذي قال عنه يونس «هو والبحر سواء»^(٦٥) أي هو الغاية، والذي تعقب الفرزدق وهو من هو في الفصاحة وخطأه في قوله:
وعض زمان يا بن مروان لم يدع من المال إلا مسحاً أو مجلف
 إذ قال له: على أي شيء ترفع أو مجلف؟ فأجابه: على ما يسوءك وينوءك^(٦٦) فقد كان الحضرمي يعلل لما يراه بأنه معطوف على منصوب فينصب. والذي تعقبه أيضاً في مدحه يزيد بن عبد الملك بقوله:

مستقبلين شمال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منثور
 على عمائمنا يلقى وأرخلنا على زواحف تُرْجَى مَخْهَارِيرِ
 إذ قال له: أسأت إنما هو: مَخْهَارِيرُ، وكذلك قياس النحو في هذا الموضع^(٦٧)

ولما رأى الفرزدق هذا التتبع من الحضرمي ثارت نفسه عليه فقال بهجوه:

فلو كان عبدالله موقئ هجوته ولكن عبدالله موقئ مواليا

ولم يترك ابن أبي اسحاق هذا أيضاً بدون نقد فقال له: لقد لحننت فيه وكان ينبغي أن تقول: مولى موال^(٧٦).

ويعدّ من هذه العلامات أيضاً بروز ظاهرة التفسير والشرح والتعليل مما أخرج النحو عن دائرة الرواية وحدها إذ لم يعد النحاة كعيسى بن عمر المتوفى سنة ١٤٩هـ وأبي عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤هـ يكتفون بنقل ما يسمعون ولكنهم أخذوا يحاولون إلى جانب التماس العلل والأسباب لوجهات نظرهم في مسائل النحو التي لم تعد متفكراً عليها فتح باب الحجاج والجدل والتخريج والتأويل ونحو ذلك مما يعني أن درس النحو قد خطا على أيديهم خطوة متقدمة إلى الأمام.

ومن أهم العلامات ظهور علم النحو على يد الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥هـ وسيبويه المتوفى سنة ١٨٨هـ تماماً مكتملاً ناضجاً وضعت قواعده وقرعت مسائله وبسطت قضاياها ومدّت أطنابه وفتقت معانيه والتمست له العلل وأفترضت فيه الفروض، وأوضح فيه الحجاج حتى بلغ أقصى حدوده وأقيم فيه الحوار على أسس دقيقة متماسكة يفضي بعضها إلى بعض على نحو ما كان منهما في كتاب سيبويه بينه وبين أستاذه الخليل مما يحيط بالنحو ويقف بالنظرة الشاملة على كل صغيرة وكبيرة فيه مع الموازنة والاستنباط.

ويعدّ الخليل وسيبويه أبرز أعلام النحو في جميع المراحل فهما اللذان سلاه بالأصول والفروع والأدلة والأقيسة، وسيبويه هو الذي أخرج كتابه الجامع لقواعد النحو المحيط بمسائله فقد كان الخليل كما يقول أحمد أمين أرقى من أن يعكف على الكتب يدونها فهو مخترع العلم، ويتركه لتلاميذه يدونونه ولم يكن يرضى أن يؤلف في النحو حرفاً أو يرسم منه رسماً واكتفى في ذلك بما أوحى إلى سيبويه من علمه ولقنه من دقائق نظره ونتائج فكره ولطائف حكمته فحمل سيبويه ذلك عنه وتقلّده وألف فيه الكتاب الذي أعجز من تقدّم قبله كما أمتنع على من تأخّر بعده^(٧٧) لذلك أكثر سيبويه في كتابه من النقل عن أستاذه الخليل، ونقل كذلك عن غيره، بالإضافة إلى رواية ما سمعه والموازنة بين ما يروي وينقل وغير ذلك من الأمور التي تجعل النحو في كتابه

مشاركاً على التمام ممّا مهّد الطريق للتالين لكي يضعوا مسائل النحو في وضعها النهائي الذي نشاهده الآن، ولكي يسمّوا مصطلحاته التسمية الاصطلاحية ويحدّدوها التحديد الواضح الدقيق اللذين نعرفهما في الوقت الحاضر.

وعندي أنّ سيبويه يعدّ أول من فتح باب التفلسف في الدرس النحويّ ليلجحه بعد ذلك من وليه من النحاة المناطقة في العصور المتعاقبة وليمعنوا في منطقة النحو وفلسفته بما أخرج أكثر مسائله في النهاية عن دائرة الحسّ اللغويّ والرواية الصافية ليدخلها في دائرة المعقول وذلك عن طريق أفتراضه الأساليب وإتيانه أحياناً بالمعقد منها وعقده الأبواب التي تتضمّن ما جاء به النحويون منها قياساً ممّا لم تتكلم به العرب حتى تكمل لهم الأوجه التي تصورها^(٧٨)!

أما المرحلة الأخيرة الطويلة الممتدة فهي مستمرة إلى عصرنا الحاضر الذي شهد محاولات لا يمكن وصفها بالحاسمة على يد بعض المعاصرين في سبيل نحو ميسر مبسّط سهل إلى نحو ذلك من النعوت، وأهمّ مظاهر هذه المرحلة تأثر النحو بالمنطق في البدء تأثراً لم يلبث أن تصاعد جيلاً بعد جيل، تتضح أوائل ذلك عند المبرّد المتوفى سنة ٢٨٥هـ وذلك على نحو يزيد في الغالب على ما كان منه في نحو سيبويه، فقد شهد المبرّد اتّساع نطاق الترجمة للمنطق والفلسفة وسائر العلوم والمعارف، وتأثر لذلك في نحوه بالمنهج الفلسفي وبطرائق المتكلمين ومصطلحاتهم وأساليبهم، يظهر هذا جلياً في مثل قوله «فأما طلحة فلو قلت في جمعها طلحتون للزمك أن تكون أنثته وذكرته في حال وهذا هو المحال»^(٧٩) وقوله عن الأفعال «كان حدّها ألا يعرب شيء منها لأنّ الإعراب لا يكون إلّا بعامل، فإذا جعلت لها عوامل تعمل فيها لزمك أن تجعل لعواملها عوامل، وكذلك لعوامل عواملها إلى ما لا نهاية»^(٨٠) وقد أفترض المبرّد كسيبويه الصيغ وربّما تعسف فيها وأبتعد بها عن اللسان العربيّ على نحو ما فعل من بنائه مثل جعفر من قلت وبعث ومثل تفعل من القول والبيع ومثل تفعل منهما^(٨١) كما افترض مثله الأساليب وربّما بالغ فيها وأغرب وجنح إلى التعقيد اللفظي والتعليل المنطقي كما فعل في باب مسائل أيّ في^(٨٢) الاستفهام، وكقوله عن الموصول «فإن قلت: الذي التي اللذان الذين التي في الدار جاريتهم منطلقون إليهما صاحبها اخته زيد، كان جيداً بالغا»^(٨٣).

ومع أنّ النّاثر بالمنطق والفلسفة والالتزام بهما في الدرس النحويّ كان أهمّ مظاهر هذه المرحلة منذ بدايتها فإنّ رقص بعض النحاة منذ البداية لهذا الاتجاه يعدّ أيضاً من أهمّ معالمها، فقد راينا الجرمي مثلاً المتوفى سنة ٢٢٥هـ يأبى التعقيد ويكره كثرة التقديرات بل يرى أنّ ما لا يحتاج إلى تقدير خير ممّا يحتاج إليه، وكان يرى أيضاً أنّ يقتصر في النحو على السماع والقياس على المسموع دون الإتيان بفروض غير مستعملة وصور ذهنية نظرية لم يرد لها مثيل عن العرب على نحو ما جاء به المبرد ومن بعده لأنّ في ذلك تكلفاً شديداً.

وهذه الفروض والصور إن دلت على قدم راسخة في العلم وعلى تمرّس أصحابها الطويل به فإنّها في الحقيقة تبعث الآن على ضيق لا يقلّ عن ضيق بعض المتقدّمين بها كالجرمي وكابن مضاء المتوفى سنة ٥٩٢هـ الذي حمل في كتابه «الردّ على النحاة» على كل ذلك حملة شعواء وكغيرهما.

على أنّ كثرة ناقدى النحو ولاسيّما في الزمان الأخير لما شابه من التمنطق والتفلسف ثم غلب عليه منهما في شتى نواحي درسه لا يعني بالضرورة الدعوة إلى نبذ وإهماله وإطراحه، ذلك لا ينبغي أن يخطر على بال منصف، فللنحو فائده وفضله وللنحاة منازلهم وأقدارهم، ويكفي النحو أننا نبحت فيه عن اللغة التي تكلمت بها العرب ونزل بها القرآن. كلّ ما ينبغي أن نتطلع إليه ونعمل في سبيله بهدوء ورويّة ودون تحامل هو أن يكون النحو خالياً من التعمية والتكلف والتعقيد والافتعال ونحو ذلك من السلبيات المرفوضة في صيغه وأساليبه وأفكاره وأمثله. أمّا ما كان من كره بعض الناس - علماء وغير علماء في الأزمنة المختلفة - للنحو ورفضهم له بحجة ما رواه فيه، وذلك كالذي روي من أنّ اعرابياً وقف على حلقة أبي زيد الأنصاري المتوفى سنة ٢١٥هـ فظنّه قد جاء يسأل عن مسألة في النحو فقال له: سل يا اعرابي، فقال له على البديهة:

لست	للنحو	جنتكم	لا ولا فيه	ارغب
أنا	مالي	ولامريء	أبد الدهر	يُضْرَب
خُلِّ	زيداً	لشانه	أينما شاء	يذهب

وَأَسْمَعُ قَوْلَ عَاشِقٍ قَدْ شَجَاهَ التُّطْرُبَ
هُمُّهُ الدَّهْرَ طِفْلَةً^(٧٤) فَهُوَ فِيهَا يُشَبِّبُ^(٧٥)

وما روي من إنشاد عمار^(٧٦) الكلبي في هجاء النحويين وقد عيب عليه بيت من شعره فامتعض لذلك:

مَاذَا لَقِينَا مِنَ الْمُسْتَعْرِبِينَ وَمَنْ
إِنْ قَلَّتْ قَافِيَةٌ بِكُرّاً يَكُونُ بِهَا
قَالُوا لَحْنَتْ وَهَذَا لَيْسَ مُنْتَصِباً
وَحَرَّضُوا^(٧٧) بَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ مِنْ حُمُقٍ
كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ قَدْ أَحْتَالُوا لِمَنْطِقِهِمْ
مَا كَلَّ قَوْلِي مَشْرُوحاً لَكُمْ فَخَذُوا
لَأَنَّ أَرْضِي أَرْضَ لَا تُشَبِّبُ بِهَا
قِيَّاسَ نَحْوِهِمْ هَذَا الَّذِي أَبْتَدَعُوا
بَيْتَ خِلَافِ الَّذِي قَبَّاسُوهُ أَوْ ذَرَعُوا
وَذَاكَ خَفِضَ وَهَذَا لَيْسَ يَرْتَفِعُ
وَبَيْنَ زَيْدِ فَطَالِ الضَّرْبِ وَالْوَجْعِ
وَبَيْنَ قَوْمٍ عَلَى إِعْرَابِهِمْ طُبِعُوا
مَا تَعْرِفُونَ وَمَا لَمْ تَعْرِفُوا فَدَعُوا
نَارَ الْمَجُوسِ^(٧٨) وَلَا تُبْنِي^(٧٩) بِهَا الْبَيْعَ^(٨٠)

أقول إن هذا وأمثاله ينطوي على مبالغات ينبغي أن تردّها أو تحدّ من أثرها ماثورات كثيرة تضادّها في الاتجاه وتتفوّق عليها في القوة، وقصص متعددة تظهر منزلة النحاة وتصرّح باعترازهم بأنفسهم وتبين صوراً من تكريمهم، فقد كان عبد الملك بن مروان يقول «تعلّموا النحو كما تتعلّمون السنن والفرائض»^(٨١)، ومما امتدح به النحو قول الشاعر:

النَّحْوُ يَنْبَسُطُ مِنْ لِسَانِ الْأَلْكَنِ
فَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجْلَهَا
وَالْمَرْءُ تَكَرَّمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَنِ
فَاجْلُهَا مِنْهَا مَقِيمُ الْأَلْسِنِ^(٨٢)

وقول ابن شبرمة قاضي الكوفة «إن الرجل ليلحن وعليه الخرز الأدكن فكانت عليه أخلاقاً، ويعرب وعليه أخلاق فكانت عليه الخرز الأدكن»^(٨٣)، وروي أنّ الرشيد اشرف على الكسائي وهو لا يراه فقام الكسائي ليلبس نعله لحاجة يريدها، فابتدرها الأمين والمأمون وكان مؤدبهما فوضعاها بين يديه فقبل رموسهما وأيديهما ثم أقسم عليهما ألا يعاودا، فلما جلس الرشيد مجلسه قال: أيّ الناس أكرم خدماً؟ قالوا: أمير المؤمنين أعزّه الله. قال: بل الكسائي يخدمه الأمين والمأمون، وحديث^(٨٤)، وروي أنّ

سليمان بن عتيّ والي الأهواز أرسل إلى الخليل يلتمس منه الشخوص إليه لتأديب أولاده ويرغبه، ولكنه كان زاهداً غفيف النفس لا يختار صحبة الملوك والأمراء فلم يستجب له وأخرج إلى رسول سليمان خبزاً يابساً وقال له: ما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة لي في سليمان، فقال الرسول: فماذا أبلغه عنك؟ فأنشأ يقول:

أبلغ سليمان أنّي عنه في سعة وفي غنى غير أنّي لست ذا مال^(٨٥)

وأراد الواثق أن يستبقي المازنيّ عنده فقال له المازني «يا أمير المؤمنين إنّ الغنم لفي قربك والنظر إليك، والأمن والفوز لديك، ولكنّي ألفت الوحدة وأنست بالانفراد ولي أهل يوحشني البعد عنهم ويضربهم ذلك، ومطالبة العادة أشدّ من مطالبة الطباع»^(٨٦) ولما اعتذر قال له الخليفة «لا تقطعنا وإن لم نطلبك، فقلت: السمع والطاعة، وأمر لي بألف دينار»^(٨٧) وقال ابن خلدون عن النحو «به يتبيّن أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ولولاه لجهل أصل الإفادة»^(٨٨) وقال أبو بكر بن مجاهد في فضل النحو «قال لي ثعلب يا أبا بكر اشتغل أصحاب القرآن بالقرآن ففازوا وأصحاب الحديث بالحديث ففازوا وأصحاب الفقه بالفقه ففازوا، واشتغلت أنا بزيد وعمرو فليت شعري ماذا يكون حالي؟ فأنصرفت من عنده فرأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم تلك الليلة فقال لي: أقرئ أبي العباس منّي السلام، وقل له أنت صاحب العلم المستطيل»^(٨٩) قال أبو عبدالله الروذباري أحمد بن عطاء «أراد أنّ الكلام به يكمل، والخطاب به يجمل، وأنّ جميع العلوم مفتقرة إليه»^(٩٠)

ونحو هذه الأقوال والأشعار والروايات كثير ميثوث في بطون الأسفار، ومبناها جميعاً ومدارها بيان قيمة النحو العظمى والدعوة إلى تعلّمه والكشف عن منزلة أعلام النحاة والحثّ على الاقتداء بهم والاطلاع على آثارهم، فالنحو في حقيقة الأمر أشرف العلوم لأنّ به صلاح اللسان وسلامة المنطق وسلاسة البيان واستقامة الأداء، وبه يحسن الناس تلاوة القرآن وعن طريقه يخدمون الدين ويواسطه يرفعون شأنهم، وفصاحة الكلام لا تكون إلّا به وصحة الكتابة لا تتمّ إلّا بعونه، فهو مفتاح العلوم ومعيار الآداب، وبه يسلم كلّ من الكتاب والسنة من عادية اللحن والتحريف ويستبين

سبيل العلوم على تنوع مقاصدها، وهو الذريعة إلى تحديد المعنى وتقريب التفاهم وإرساء دعائم الحكم الصحيح، وهو في نهاية المطاف المعيار الذي يوزن به الكلام وتحفظ به اللغة خصائصها ومقوماتها وتتقي به الألسن مزلقها، فهو درع اللغة الواقي وقوام الألسنة الحافظ ووسيلة تذوق الفنون والسر فيها على بصيرة.

أما اعلام النحاة فإن مكانتهم بين عليّة القوم كانت رفيعة إذ كان منهم المؤدّبون الذين يشرفون على تربية أولاد الخلفاء والامراء والرؤساء كالكسائي والمبرد، ومن لم يستطع من هؤلاء أن يحظى بأحد الاعلام مؤدّباً لأولاده كان حريصاً على أن يتصل به ويستزيره ويخطب وده ويجزل عطاءه. كذلك كانت منزلتهم في الحياة العامة، فقد عظّمهم الناس وانزلوهم من انفسهم منزل الإجلال والإكبار وضربوا بهم المثل في سعة العقل وحدّة الفهم والإحاطة بمسائل العلم، فما أقروه خلد وبقي وما هجنوه سقط وضاع، وكان عليّة القوم وعمامة الناس على حدّ سواء حرصاً منهم على صحة كلامهم يلجئون إليهم إذا خفي عليهم وجه الصواب فيه، فقد استقدم المهديّ مثلاً الكسائي بسبب الرغبة في معرفة كيفية صياغة الأمر من السواك بلاضافة إلى حرصه على وجود نحويّ كبير إلى جانبه يرجع إليه عند اللزوم^(١)؛ وكان اتصال المازني بالوائق بسبب بيت من الشعر ضلّ في توجيهه الحاضرون فأرسل الخليفة إلى المازني استأذ العربية في عصره فحضر وأنقذهم من حيرتهم^(٢)!



● الهوامش ●

- (١) السيوطي، المزهر ١: ٢١٠.
- (٢) انظر د/ حسن عون، اللغة والنحو ٤٢ - ٤٤.
- (٣) من الآية ٧١ من سورة الإسراء.
- (٤) من الآية ١ من سورة المؤمنون.
- (٥) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران.
- (٦) انظر البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ١: ١٧٢.

- (٧) انظر ابن هشام، شرح شذور الذهب ١٦، ٢٤.
- (٨) ابن جنّي، الخصائص ٢: ١٢.
- (٩) انظر شيئاً من هذه الأمثلة في التعاليبي، فقه اللغة ٢٢٨ - ٢٢٩.
- (١٠) انظر التعاليبي، فقه اللغة ٢٢٨.
- (١١) انظر الشنقيطي، الدرر اللوامع ١: ١٤١.
- (١٢) انظر ابن فارس، الصحاحي ٦ - ١٣، ٩، والسيوطي، المزهر ١: ٨، ومحمد الطنطاوي، نشأة النحو ١٢.
- (١٣) ابن جنّي، الخصائص ١: ٢٤.
- (١٤) انظر ابن منظور، لسان العرب ١٥: ٢٠٩، وابن النديم، الفهرست ٣٥٦، ٣٥٧.
- (١٥) الأتباري، نزهة الألباء ٥.
- (١٦) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ١: ٢٢١.
- (١٧) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ١: ٢٢٢، ٢٢٣.
- (١٨) الرافعي، تاريخ آداب العرب ١: ١٠٢، ١٠٣.
- (١٩) انظر أحمد أمين، ضحى الإسلام ٢: ٢٩٢.
- (٢٠) انظر د/حسن عيون، اللغة والنحو ٢٠٩ - ٢٥٠.
- (٢١) انظر أحمد أمين، ضحى الإسلام ٢: ٢٩٢.
- (٢٢) جو تولد فايل، مقدمة الانصاف ٢ ترجمة د/ عبد الحليم النجار نقلاً عن د/ عبد الرحمن السيد، مدرسة البصرة النحوية ١٠٤.
- (٢٣) انظر دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام ٤٠ - ٤١.
- (٢٤) ابن جنّي، الخصائص ١: ٢٤.
- (٢٥) عبد القاهر، دلائل الإعجاز ٦٤ - ٦٥.
- (٢٦) السيوطي، الاقتراح ٦.
- (٢٧) الأشموني، منهج السالك إلى الغية ابن مالك ١٥.
- (٢٨) الخضري، حاشيته على ابن عقيل ١٠.
- (٢٩) ابن خلدون، المقدمة ٥١٥.
- (٣٠) انظر الجاحظ، البيان والتبيين ٢: ٢١٩.
- (٣١) انظر الأتباري، نزهة الألباء ١٠.
- (٣٢) انظر الرافعي، تاريخ آداب العرب ١: ٢٨٨.
- (٣٣) ابن النديم، الفهرست ٥٩.
- (٣٤) انظر ابن فارس، الصحاحي ٦ - ١٣، ٩، ومحمد الطنطاوي، نشأة النحو ١٢.
- (٣٥) الأتباري، نزهة الألباء ١١.
- (٣٦) الأتباري، نزهة الألباء ٨.
- (٣٧) ابن النديم، الفهرست ٥٩.
- (٣٨) انظر الأتباري، نزهة الألباء ١١.
- (٣٩) القفطي، إنباء الرواة ١: ٤، ٤، ٦، ٥.
- (٤٠) ابن النديم، الفهرست ٦١.

- (٤١) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء ١٢.
- (٤٢) ابن قتيبة، الشعر والشعراء ٢: ٧٢٩.
- (٤٣) انظر طه الراوي، نظرات في اللغة والنحو ٧.
- (٤٤) هذا التشكيك ينسحب بالضرورة على الإمام عليّ للسبب نفسه.
- (٤٥) أحمد أمين، ضحى الإسلام ٢: ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٩٠.
- (٤٦) انظر دائرة المعارف الإسلامية ١: ٤٢٢.
- (٤٧) هذا الدكتور شوقي ضيف هذا الحدو فقال «إنّ هناك خطأ شاع وذاع قديماً وحديثاً وهو ما ينسب إلى أبي الأسود وتلاميذه من وضع بعض مبادئ النحو، وهي إنّما بدأت توضع مع الجيل التالي عند أبي إسحاق الحضرمي»، د/شوقي ضيف، المدارس النحوية ٥.
- (٤٨) نقلاً عن د/عبد الرحمن السيد، مدرسة البصرة النحوية ٥٢ - ٥٤ بتصريف.
- (٤٩) محمد الطنطاوي، نشأة النحو ٢٢، ٢٣.
- (٥٠) انظر الأنباري، نزهة الألباء ١٨.
- (٥١) من آية ٢٤ من سورة سبأ.
- (٥٢) انظر د/عبد الرحمن السيد، مدرسة البصرة النحوية ٥٤ - ٦٠.
- (٥٣) يعدّ هذا المصحف أقدم مصحف مخطوط في العالم وهو موجود بحالته الأولى في دار الكتب المصرية، انظر د/حسن عيون، اللغة والنحو ٢٢٦.
- (٥٤) يصف جورج زيدان هذا المصحف بأنه مكتوب بمداد أسود وفيه نقط حمراء اللون، فالنقطة فوق الحرف فتحة وتحت كسرة وبين يديه ضمة كما وصفها أبو الأسود لما أراد التنظيط أتوه بكتاب فقال له: إذا رايتني فتحت فمي بالحرف فأنطق نقطة فوقه وإن ضممت فيعين يديه وإن كسرت فمن تحته، انظر جورج زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ١: ٢٢٢.
- (٥٥) انظر الراقعي، تاريخ آداب العرب ١: ٢٨٧، وطه الراوي، نظرات في اللغة والنحو ٧.
- (٥٦) من آية ٣ من سورة التوبة.
- (٥٧) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء ١٢.
- (٥٨) الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين ١١، ١٢.
- (٥٩) الأنباري، نزهة الألباء ٤ - ٥.
- (٦٠) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين ٩٨ - ١٠١.
- (٦١) انظر القفطي، إنباء الرواه ١: ١٧.
- (٦٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢: ٣١٢.
- (٦٣) من آية ٢٤ من سورة التوبة.
- (٦٤) انظر السمرائي، أخبار النحويين البصريين ٢٣.
- (٦٥) انظر الأنباري، نزهة الألباء ١٨.
- (٦٦) انظر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين ٣٢، والأنباري، نزهة الألباء ١٩، ٢٠.
- (٦٧) انظر أحمد أمين، ضحى الإسلام ٢: ٢٩٠، ٢٩١.
- (٦٨) انظر مثلاً، هذاب استكبره النحويين وهو قببح فوضعوا الكلام فيه على غير ما وضعت العرب، سيويه، الكتاب ١: ١٦٧.

- (٦٩) المبرد، المقتضب ٤ : ٨، وانظر في ذلك سيبويه، الكتاب ٢ : ٩٥.
(٧٠) المبرد، المقتضب ٤ : ٨٠.
(٧١) انظر المبرد، المقتضب ١ : ١٠٩ - ١١٠.
(٧٢) انظر المبرد، المقتضب ٢ : ٢٩٧، وانظر سيبويه، الكتاب ١ : ٤٠١.
(٧٣) المبرد، المقتضب ٢ : ١٢٢.
(٧٤) المقلّطه : الجارية الناعمة، انظر الفيروزآبادي، القاموس المحيط ٤ : ٧.
(٧٥) انظر الاتناري، نزهة الألباء ١٢٨.
(٧٦) أو عمرو الكلبي، انظر ياقوت، معجم الأدياء ١٢ : ١٠٣ - ١٠٤.
(٧٧) أو خُرصوا، أي قالوا كذباً، انظر ياقوت، معجم الأدياء ١٢ : ١٠٤.
(٧٨) كبلاد فارس.
(٧٩) كبلاد الروم ونحوها، أي لست أعجبياً.
(٨٠) انظر ابن جنّي، الخصائص ١ : ٢٢٩ - ٢٤٠.
(٨١) انظر ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢ : ٣٠٨.
(٨٢) انظر ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢ : ٣٠٨ - ٣٠٩.
(٨٣) انظر الرّبيدي، طبقات النحويين واللغويين ١٣.
(٨٤) انظر ياقوت، معجم الأدياء ١٣ : ١٩٢.
(٨٥) انظر السيوطي، بغية الوعاة ١ : ٥٥٨.
(٨٦) انظر ياقوت، معجم الأدياء ٧ : ١١٦.
(٨٧) انظر ياقوت، معجم الأدياء ٧ : ١١٦.
(٨٨) ابن خلدون، المقدمة ٥١٤.
(٨٩) انظر السيوطي، بغية الوعاة ١ : ٣٩٧.
(٩٠) انظر القفطي، إنباء الرواة ١ : ١٤٤.
(٩١) انظر القفطي، إنباء الرواة ٢ : ٢٥٩.
(٩٢) انظر ياقوت، معجم الأدياء ٧ : ١١١ - ١١٢.

المصادر والمراجع

- أخبار النحويين البصريين، السريافي، تحقيق فريثس كرنكو، بيروت سنة ١٩٢٦م.
- الاقتراح في أصول النحو، السيوطي، ط٢ حيدر آباد سنة ١٣٥٩هـ.
- إنباء الرواة على أنباء النحاة، القفطي، تحقيق محمد أبي الفضل، دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٢م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ط٢ مصطفى البايبي الحلبي بمصر سنة ١٩٦٨م.

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي، تحقيق محمد أبي الفضل، عيسى البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٦٤م.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٢ بمصر سنة ١٩٦٠م.
- تاريخ أداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، مصر سنة ١٩١١م.
- تاريخ أداب اللغة العربية، جورجى زيدان، دار الهلال بالقاهرة سنة ١٩١٤م.
- تاريخ الفلسفة في الإسلام، دي بور، ترجمة عبدالهادي أبي ريده، ط٤ بالقاهرة سنة ١٩٥٧م.
- حاشية الخضري على ابن عقيل، مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٤٠م.
- الخصائص، ابن جنى، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٢م.
- دائرة المعارف الإسلامية، دار الشعب بمصر.
- الدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع، الشنقيطي، مطبعة كردستان بالقاهرة سنة ١٣٢٨هـ.
- دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق محمد رشيد رضا، ط٢ بمطبعة المنار بمصر سنة ١٣٢١هـ.
- شرح شذور الذهب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق محي الدين عبدالحميد ط ١٠ بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٦٥م.
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٦م.
- الصحابي، ابن فارس، تحقيق السيد صقر، عيسى البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٧٧م.
- ضحى الإسلام، أحمد أمين، ط٧ مكتبة النهضة المصرية.
- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بمصر بدون تاريخ.
- طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، تحقيق محمد أبي الفضل، الخانجي بمصر سنة ١٩٥٤م.

- العقد الفريد، ابن عبد ربه، تحقيق د/ مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٩٨٢ م.
- فقه اللغة وسرّ العربية، الثعالبي، تحقيق مصطفى السقا وزميليه، مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٧٢ م.
- الفهرست، ابن النديم، المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٨ هـ.
- القاموس المحيط، الفيروزا بادي، ط٢ مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٥٢ م.
- الكتاب، سيبويه، بولاق سنة ١٣١٧ هـ.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر ببيروت بدون تاريخ.
- اللغة والنحو، دراسات تاريخية وتحليلية ومقارنة، د / حسن عون، مطبعة رويال بالاسكندرية سنة ١٩٥٢ م.
- المدارس النحوية، د / شوقي ضيف، دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨ م.
- مدرسة البصرة النحوية، د / عبدالرحمن السيد، العراق سنة ١٩٦٨ م.
- مراتب التحويين، أبو الطيب اللغوي، تحقيق محمد أبي الفضل، نهضة مصر سنة ١٩٥٥ م.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، تحقيق جاد المولى وزميليه، عيسى البابي الحلبي بمصر بدون تاريخ.
- معجم الأدباء، ياقوت، تحقيق مرجليوت، دار المأمون بمصر سنة ١٩٢٨ م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقى، مؤسسة جمال للنشر ببيروت بدون تاريخ.
- المقتضب، المبرد، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ.
- المقدمة، ابن خلدون، دار الشعب بالقاهرة بدون تاريخ.
- منهج السالك إلى الفية ابن مالك، الأشموني، عيسى البابي الحلبي بمصر بدون تاريخ.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات الأنباري، تحقيق محمد أبي الفضل، دار نهضة مصر سنة ١٩٦٧ م.
- نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، محمد الطنطاوي، ط٢ سنة ١٩٦٩ م بمصر.
- نظرات في اللغة والنحو، طه الراوي، المكتبة الأهلية ببيروت سنة ١٩٦٢ م.